نظرة جديدة على معادلة امبريالية قديمة :
وعد بلفور والبحث عن الجذور

حازم موسى الحسيني

مع ان للامبريالية في بعض الاحيان مضمونا عقائديا ، الا انها في الاساس ترتكز على قاعدة اقتصادية بحتة ، وبريطانية القوة الامبريالية بلا منازع في بداية هذا القرن ، هي بيت القصيد في محاولة فهمنا للجذور التاريخية لوعد بلفور . لا نحتاج الى تعريفات اضافية للامبريالية ، اذا سلمنا جدلا بان « الامبريالية هي مرحلة الراسمالية نفسها حين تصل الاخيرة مستوى تسيطر فيه الاحتكارات والراسمال المالي ، وحيث يكون قد بدأ توزيع العالم بين التروستات الدولية ، وحيث يكون قد انتهى التوزيع الجغرافي للعالم (المستعمرات) » (١) . وما يسترعي الانتباه فعلا هنا هو تحول بريطانية السريع عن امبرياليتها القديمة القائمة على الصداقة الى امبرياليتها الجديدة القائمة على تفسيخ ممتلكات الامبراطورية العثمانية . فمنذ معاهدة باريس (١٨٥٦) ، حين دخلت الامبراطورية العثمانية ضمن التعاضد الاوروبي، شعرت بريطانية بانه يجب حرمان الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية) ، ومهما كلف الامر ، من ثمار التقسيمات او الانتصارات لان الدولة العثمانية لم توفر لبريطانية سوى ممر آمن ينفذ الى مصالحها التجارية في الشرق ، ولانه يجب الحد من التوسع الروسي في الامبراطورية ، هادفة بريطانية من ذلك الى انجاز ما يسمى بـ « ميزان القوى » . لقد كان من الواضح انه ما لم تحدث تعديلات سريعة وحاسمة في بنية الامبراطورية العثمانية ، فانها ستتعرض حتما الى التجزئة . وبالرغم من ان التنافس الاستعماري لم يظهر جليا الا بعد العام ١٨٧٨ (معاهدة سان ستيفانو) ، الا انه كان لكل من فرنسه وروسيه مناطق نفوذ ضمن الامبراطورية العثمانية . آنئذ كانت الجذور التاريخية لنظام الملة لا زالت سائدة ، فكان الناس يصنفون ليس تبعا لعرقهم او جنسيتهم ، بل تبعا لخلفياتهم الدينية . وهذا بالتالي كان يستدعي ان تدعي روسيه حماية الارثوذكس في الشرق ، وان تدعي فرنسه حماية الكاثوليك ، ولكن بريطانية البروتستانتية لم تقم علاقات كتلك . وهذه الحقيقة كانت واردة في تفكير بالمرستون حين بعث برسالة الى السفير البريطاني في استانبول في ١١ آب (اوغسطس) من العام ١٨٤٠يطلب منه اجراء مشاورات مع السلطان العثماني فيما اذا كان يسمح هذا الاخير ليهود اوروبة الاثرياء بانشاء مصالح لهم ضمن الامبراطورية ، طالما انهم بذلك يشكلون حاجزا امنيا في وجه الثوار امثال محمد علي(٢) . وعلى النقيض لذلك ، فان حاييم وايزمن كان باستمرار ومرة اثر مرة يصرح ان معظم اليهود الفقراء في روسيه ، وليس اليهود الاغنياء في اوروبه ، هم الاكثر رغبة في الاستيطان في فلسطين . وهناك حقيقة دامغة